الاستشراق الشرق

ابراهيم امين المميز
الجامعة المستنصرية

وروحانسية

الاستشراق البريطاني في القرون الوسطى ودوافعه



شهدت القرون الوسطى بداية الاتصالات الثقافية بين الجزر البريطانية والعالم العربي . ففي القرن الثاني عشر الميلادي اخذ طلاب العلم في انكلترا يتوافدون على الجامعات العربية في الاندلس واشهر هؤلاء هو اديلارد اوف باث . ففي الربع الاول من القرن الثاني عشر تجول اديلارد في الاندلس وسوريا ودرس اللغة والعلوم العربية وترجم الكثير منها الى اللاتينية وعند عودته الى انكلترا عين مدرسا خاصا لولي العهد الذي اصبح فيما بعد الملك هنري الثاني . وتبع اديلارد العديد من الباحثين وطلاب العلم ، منهم روبرت اوف جستر ايضا في القرن الثاني عشر ، ودانيل اوف مورلي الذي ابدى استياءه من جامعات الافرنج فرحل الى الاندلس سعيا وراء اكثر الفلاسفة في الكون حكمة (1) . وفي القرن الثالث عشر رحل ميخائيل سكوت الى صقلية واتقن اللغتين العربية والعبرية وقام بترجمة اعمال ارسطو طاليس من العربية الى اللاتينية وبذا يكون اول من ادخل بعض كتابات ارسطو طاليس الى الغرب (2) .

وقد تأثر عدد من الشعراء الفلاسفة الانكليز بصورة غير مباشرة بالتراث العربي مثل روجر باكون والشاعر جوسر ، كما يذكر البروفسور برنارد لويس . ومن الجدير بالذكر ان اول كتاب يطبع في انكلترا عام 1477 وهو (3) :

Dicts And Sayings OF The Philosophers

ما هو الا ترجمة لكتاب عربي هو « كتاب مختار الحكم ومحاسن الكلم » الذي كتبه عام 1053 ميلادية الامير مبشر بن فاتك المصري وهو على شكل مخطوطة غير مطبوعة وموجودة حاليا في هولندا ويحتوي على مجموعة من الامثال والحكم الفلسفية وترجم الى بعض اللغات الاوربية الاخرى عدا اللاتينية . وقد تعلم الطلاب الانكليز من اساتذتهم العرب ـ كما يقول اديلارد لابن اخيه وهو يحدثه ـ « الاساليب العلمية المنطقية في البحث والاستقصاء ، فقد تعلمت « ... شيئا واحدا من اساتذتي العرب ... تعلمت ان الانسان قد منح العقل ، ليلعب دوره كالحكم الرئيس في التمييز بين الحق والباطل . علينا ان نبحث اولا عن العقلانية وعندما نجدها وليس قبل ذلك يمكن اضافة الخبرة لها . فالخبرة بحد ذاتها لا يمكن ان تنمي الثقة في نفسية الفيلسوف » (4) . وفي القرون اللاحقة تغير الموقف بين العرب والغرب ففقد العرب تفوقهم الحضاري ، وتقدمت اوربا علميا وثقافيا ، وانقطع سيل الطلبة الاوربيين على الجامعات العربية .



■ 1 . و . لين

فدرس التراث العربي في الغرب ليس طلبا للعلم والمعرفة وانما لاغراض اكاديمية صرفة وبدات حركة الاستشراق في انكلترا بتأليف المعاجم وكتب النحو وبتحقيق النصوص والمخطوطات العربية والقيام بالبحوث في التاريخ والادب العربي ، ففي القرن السابع عشر بدأ الاستشراق في انكلترا بالمعنى الحديث حين استحدثت كراسي الاستاذية في الادب والتاريخ العربي في اكسفورد وكمبرج . ويعتبر اول مستشرق في انكلترا هو ،

وليم بيدويل (1632 ـ 1561) واهم اعماله قاموس عربي يقع في (7) مجلدات الا انه لم ينشرها . كما قام ببعض الابحاث القرآنية ، وجمع قاموسا بالكلمات العربية المستعملة في اللغات الاوربية .

جون كريفز (52 ـ 1602) : استاذ علم الفلك في اكسفورد ، تجول في الشرق الادنى ، خاصة في مصر ، وجمع عددا من المخطوطات العربية والفارسية واهتم بدراسة علوم الرياضيات عند العرب .

ادوارد بوكك (91 ـ 1604) : سافر عام 1630 الى حلب واقام هناك لمدة خمس سنوات اتقن خلالها العربية قراءة وكتابة . وجمع عددا كبيرا من المخطوطات العربية التي اخذها معه الى اكسفورد وبعد عودته الى انكلترا عام 1636 تبوأ كرسي الاستاذية العربي في اكسفورد وروى عنه انه كان يبدأ محاضراته بحكم الامام علي بن ابي طالب . ومن اهم اعماله :

٢ ـ نموذج من تاريخ العرب
Specimen of The History of The Arabs
وهو عبارة عن مقتطفات من تاريخ ابي الفرج : وقد طبع عام 1649 في اكسفورد واعيد طبعه عام 1806 .

ب ـ « لامية العجم » : دراسة نقدية لقصائد الطغرائي ، نشرت في اكسفورد عام 1661 .

ج ـ « المختصر في الدول » : ويتضمن النص العربي الكامل لتاريخ ابي الفرج مع ترجمة انكليزية له .

واعتبر بوكوك اشهر مستشرقي عصره ، وقصده طلاب العربية من سائر انحاء اوربا ، حتى من رومانيا وبالاضافة الى مؤلفاته المذكورة آنفا فقد ترك عند وفاته 420 مخطوطة عربية اقتنتها مكتبة البودليان في اكسفورد (5) ولا تزال موجودة بها حتى الآن .

ومن اهم الدوافع التي ساعدت على نمو حركة الاستشراق في اوربا عامة وانكلترا خاصة في القرن السابع عشر هو الدافع الديني فقد اتضح ان هناك علاقة وطيدة بين اللغتين العربية والعبرية ، واعتبرت اللغة العربية عاملا يساعد على القاء الضوء على مفردات ونحو اللغة العبرية لكي يكون بالامكان قراءة « العهد القديم » بنصه العبري .

الاستشراق في القرن الثامن عشر

تزايد الاهتمام بهذا القرن بدراسة العربية في انكلترا واستحدث كرسي استاذية آخر للعربية في كل من اكسفورد وكمبرج ومن اهم دارسي العربية في ذلك القرن :

سيمون اوكلي (1720 ـ 1678) : درسها في اكسفورد وكمبرج ، واصبح استاذا للعربية فيما بعد بكمبرج ومن اهم مؤلفاته :ـ « مدخل الى دراسة اللغات الشرقية » وترجمة الى الانكليزية لـ « حي بن يقظان » لابن طفيل ، ودراسة ثقافيةوسياسية عن الاسلام تقع في (3) مجلدات والتي تعتبر اول محاولة لتعريف قراء الانكليزية بالحضارة العربية الاسلامية .

جورج سيل (1736 ـ 1697) : وهو محام درس العربية في اوقات فراغه ووصف نفسه بانه « نصف مسلم » وهو اول اوربي ترجم القرآن الكريم ، وذلك عام 1734 .

وليم جونس (94 ـ 1746) : ترجم المعلقات ، درس العربية في اكسفورد حيث استصحب معه شخصا سوريا ليكون مدرسا له.

ج.ل. بوركهارت (1817-1784): السويسري الاصل الذي اقام في انكلترا، فبعد ان درس في بعض الجامعات الاوربية سافر الى حلب حيث اقام فترة اتقن فيها العربية ، وامضى معظم حياته يتجول في سوريا ومصر وشبه جزيرة العرب ، واستطاع ان يزور مكة . اشهر مؤلفاته « البدو والوهابيون » وقد جمع الكثير من الاقوال والامثال العربية من تجواله في البوادي .

الاستشراق في القرن التاسع عشر

استحدث كرسي استاذية آخر في جامعة لندن المؤسسة حديثا، كما ان توسع النفوذ البريطاني في الهند وزيادة الاقبال على دراسة اللغات الهندية المختلفة شجع الباحثين على دراسة العربية باعتبارها لغة مساعدة ، واهم مستشرقي ذلك القرن م. لومسدن ـ استاذ العربية في كلية فورت وليم بالهند الذي قام باعداد مدخل للنحو العربي فاستعمل بصورة واسعة في الهند واوربا ، وج.هـ. هندلي الذي اعد دراسة عن المتنبي .

وكان القرن التاسع عشر عصر المستشرقين الرحالة ، ومن اهم هؤلاء :ـ

ا . و . لين (76 ـ 1801) : ابحر في حزيران 1825 الى الاسكندرية ورغب باديء الامر في دراسة حضارة قدماء المصريين الا انه شغف باحفادهم واسلوب معيشتهم ، ويقول في مذكراته : «عندما وطأت قدماي ارض مصر ، اعترتني عاطفة جياشة ، كعريس شرقي على وشك ان يرفع الحجاب عن وجه عروسته التي لم يسبق ان رآها » وكان نمط معيشته لا يختلف عن اي مصري آخر ، فقد ساعدت سحنته الشرقية وملامحه السمراء ان يندمج اندماجا كليا في الاوساط الشعبية المصرية ، حيث عرف بـ « منصور افندي » وبعد رجوعه الى انكلترا نشر كتابا يقع في مجلدين بعنوان :

AN Account of The Manners And Customs of The Modern Egyptians - 1836

حيث لقي نجاحا باهرا ، فبيعت الطبعة الاولى منه خلال اسبوعين ، واعيد طبعه في المانيا وامريكا . ويستعرض الكتاب تقاليد وعادات وانماط معيشة اهل القاهرة ، قبل ان تحدث التغييرات التي حولتها الى مدينة عصرية ، وكان ذلك من اهم اسباب نجاح الكتاب ، اذ انه بدون الحياة اليومية في عصر يكاد يكون منقرضا . وفي السنين التالية كرس (لين) جهوده لاعداد ترجمة انكليزية « لالف ليلة وليلة » حيث ان التراجم السابقة كانت ـ من وجهة نظره ـ تنقصها الدقة العلمية ، فقد كان يهدف الى ترجمة حرفية دقيقة والابقاء في الوقت نفسه على طابعها الاصيل . واعد معجما (عربيا ـ انكليزيا) ، فالقواميس العربية المتداولة في مكتبات وجامعات اوربا يومئذ كقواميس Freytas و Golius اعتبرت غير متكاملة ومفرداتها شحيحة . وبدأ (لين) مهمته الشاقة هذه ، مستعينا بالمعاجم العربية الكلاسيكية كـ « تاج العروس » وغيره . وفي تموز 1842 ابحر في سفرته الثالثة الى مصر ، واقام في القاهرة منكبا على عمله بمعدل 12 ـ 14 ساعة يوميا ، وعندما اقتنع بانه جمع ما فيه الكفاية من المفردات ، عاد الى انكلترا ، وكرس الـ 25 سنة المتبقية من حياته لاعداد قاموسه (6) .

ادوارد هنري بالمر (82 ـ 1840) : عندما كان في العشرين من عمره تعرف على مسلم هندي يدعى الشيخ عبدالله ، الذي كان يدرّس اللغة الهندستانية في كمبرج فاستقى منه بالمر ولعا وشغفا عجيبين باللغات الشرقية وانكب على دراسة العربية والفارسية والاردية ، ووجد نفسه يترجم الشعر الانكليزي الى العربية ، واختلط بالمر بالجالية العربية بانكلترا ، وكون صداقة حميمة مع شخص يدعى « رزق‌الله حسون الحلبي » الذي علم بالمر الكثير واثر تاثيرا عميقا في نفسه (7) . وفي عام 1869 سنحت له الفرصة لزيارة الشرق الادنى ممثلا لـ « جمعية استكشاف فلسطين » Palestine Exploration Society وبعد عودته عين استاذا للعربية في كمبرج وفي عام 1882 زار مصر وقام برحلة على صهوة جواد عبر صحراء سيناء ، لقي فيها حتفه على يد جماعة من البدو . ومن اهم خصائص بالمر التي تميزه عن بقية المستشرقين

هو انه اتقن العربية كتابة اتقانا كاملا ، فقد قرض بالمر الشعر بلغة الضاد ، وفيما يلي نموذج من اشعاره بالعربية :

ليت شـعري هل كفى ما قـد جرى
مـذ جرى ما قـد كفى من مُقلتي
قـد برى اعظـم حزن اعظمـي
وفنى جسـمي حاشـا اصغري

ومن مؤلفاته دراسة عن اشعار بهاءالدين زهير المصري ،وكتاب في النحو العربي بالانكليزية ، وسيرة هارون الرشيد ، وتراجم للشعر العربي والفارسي الى الانكليزية .

وليم رايت (89 – 1840) : ابن ضابط بريطاني في الهنـد كانت والدته ضليعة باللغات الشرقية ، وشجعت ابنها على دراستها، فدرس العربية في جامعات انكلترا وجامعة ليدن في هولنـدا حيث تتلمذ على يد المستشرق الهولندي الشهير رينهارت دوزى ثم درّس العربية في جامعات لندن ودبلن وكمبرج . ومن اعماله اصدار طبعة محققة لرحلة « ابن جبير » و « الكامل » للمبرّد ، كما تعاون مـع دوزي في اصدار طبعة « التاريخ » للمقري .

وتبع « رايت » في كرسي الاستاذية العربي بكمبرج الاسكتلندي روبرتسون سميث (44 – 1846) الذي درس العربية في جامعـة ابردين الاسكتلندية ، وتجول من 1879 الى 1881 في مصر وفلسطين وسوريا وشبه جزيرة العرب ، فوصل الى جـدة والطائف . ومن اعماله المنشورة « القرابة والزواج عند العرب قبل الاسلام » . كما شغل منصب رئيس تحرير دائرة المعارف البريطانية .

واسكتلندي آخر عني بدراسة تراث العرب هو سير وليم موير (1905 – 1819) الذي نشر عدة بحوث عن الرسـول (صلعم) والتاريخ الاسلامـي بعضها لا يزال يدرس في الجامعات الانكليزيـة والهندية ، وكتابه عن تاريخ الخلافة الاسلاميـة المستند الى الكثير من امهات المراجع العربية لا يزال مصدرا مهما في هذا الموضوع .

وبذا يتبين ان القرن التاسع عشر يعج بالكثير من المستشرقين « الرحالة » بخلاف اولئك الذين قـاموا بجولات « سياحية » الى مصر وسوريا وفلسطين ، وكان عنصر الاستكشاف جزءا من طبيعة القرن التاسع عشر (8) .

ان ترامي اطراف الامبراطورية البريطانية وقوة نزعة الترحال والتجوال واختراق الاماكن النائية ، والشهرة الواسعة وما يرافقها من جاه وتكريم التي تنتظر من يصل الى مجاهل الصحارى والغابات دفعت بالكثير الى الترحال وتدوين ادق تفاصيل ما يشاهدونه ، ثم دفع كتاباتهم الى الناشرين ، مما يضمن لهم موردا ماليا دائما ومنزلة مرموقة في الميادين الادبية والجغرافية . ومنهم :

ولفرد سكاوت بلنت (82 – 1840) : فقـد بدا حيـاته دبلوماسيا وتجول مع زوجته في الشـرق الادنى وشمال افريقيا ، فزار نجد عام 1878 ، فاستقبلهم امير حائل وقدم لهم مجموعة من الخيول العربية الاصيلة وضمن سلامتهم لحين وصولهم الى بغداد ، وكان (بلنت) يتعاطف مع زعماء الحركات الوطنية والفكرية في العالم العربي كاحمد عرابي وجمال الدين الافغاني . وقامت زوجتـه آن بلنت التي تتقن العربية بترجمة المعلقات السبع الى الانكليزية وقـام هو باعادة كتابتها كشعر انكليزي .

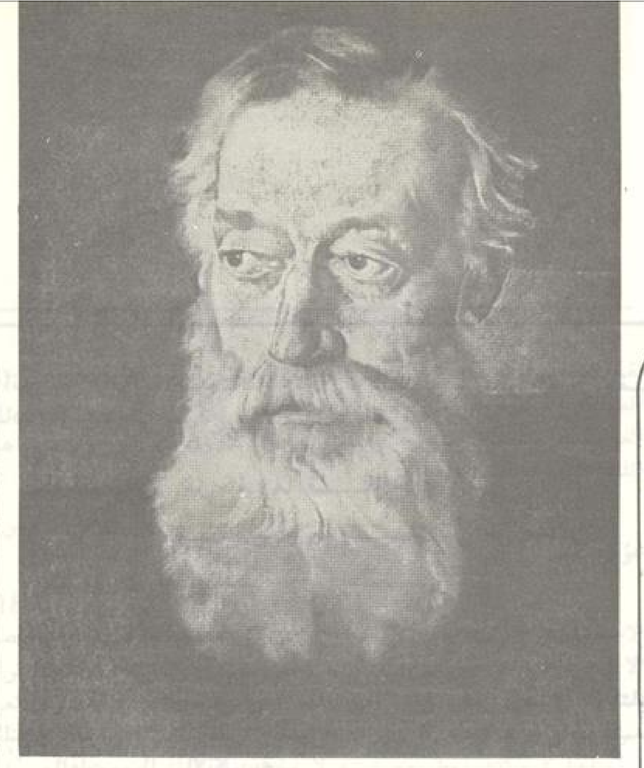
جارلس داوتي (1926 – 1843) : يعتبر من اهم الرحالة في القرن التاسع عشر . فبعـد فترة استعداد قضاها في دمشق حيث درس العربية ، قام باسفاره الاستكشافية في اواسط شبه جزيرة العرب وبخلاف اسلافه الذين اخفوا اصلهم ودينهم اثناء تجوالهم في شبه الجزيرة ، فلم يخف داوتي اصله ودينه ، بل كـان يتجول « كنصراني » فكاد يفقد حياته اكثر من مرة ، وكتـابه المعروف (الصحراء العربيـة) يحتوي معلومـات مفصلة عن جغرافيـة وجيولوجية شبه الجزيرة .

واشهر هؤلاء الرحالة هو سير ريتشارد بيرتون :(90 – 1821)درس العربيةفي اكسفورد ولكنه ترك الجامعة قبل انتهاء دراستهوذهب الى الهند والتحق بالجيش البريطاني ومكث في المناطق الاسلامية هناك عـدة سنوات ودرس العربية والفارسية وبعض اللغات الهندية وزار مصـر ومن القاهرة سافر الى السويس على ظهر جمل ومن هنـاك استقل سفينة حجاج الى ينبع ومن ثم عبر الحجاز ، الى مكة والمدينة وعند رجوعه الى انكلترا نشر كتابه « حج الى مكة والمدينة » .

وهناك العديد من الرحالة لا يتسع المجـال لذكرهم جميعا في هذا المجال مثل هاملتون و بوكنكهام وغيرهما . فالاستعراض التاريخي للاستشراق الوارد آنفا ليس ببحث شامل للموضوع ، وانما الغرض منه اعطاء فكرة عامة عن الاستشراق في انكلترا الى القـرن التاسع عشر ، وبالتالي بيان العلاقة بين الاستشراق والرومانسية ، خاصة رومانسية « الهرب » التي انتشرت في ذلك العصر واثرت على حركة الاستشراق .

رومانسية « الهرب »

ان طابع رومانسية « الهرب » في القرن التاسع عشر في اوربا وخاصةفي انكلترا تعزى لعوامل كثيرة منها ترامي اطراف الامبراطورية، وتدفق ثروات المستعمرات على الوطن « الام » وظهور طبقة موسرة عبرت عن رغد حالها وبحبوحة عيشها بالتحليق في اجواء الخيال . فاستقطب الشرق والوانه الزاهية انظار الاوربيين الذين وجدوا فيه متنفسا لما يعتلج في نفوسهم من احلام عن بلدان نائية واقوام لا تزال ترفل في حياة تكاد تكون « مسرحية » في انمـاط معيشتها شبه الاسطورية وملابسها الزاهيـة الفضفاضة اذا قورنت بمناخ اوربـا الاجتماعية القاتم ورتابة العيش فيـه ، خاصة بالنسبة للطبقات دون الوسطى والطبقات العاملة . كما ان تأسيس دور النشر التي طبعت ووزعت كتب الرحالة بعشرات الآلاف فتلقفتها ايدي القراء والتهمت محتوياتها ساهمت مسـاهمة فعـالة في خلـق عنصر « الهرب » في نفوس القراء الى جو رومانسي بعيد عن جوهم البـارد والرتيب بالمعنيين المناخي والاجتماعي . وانتشار الصحف الحافلة بمغامرات الرحالة والمكتشفين في بقاع العالم النائية حفزت الخيـال للهرب باتجاه كل ما هو « فطري » نحو امصار مشمسة نهـارا ومرصعة بالنجوم ليلا ، حيث الحياة لذيذة برخاوتها وبطئها ، بعيدة كل البعد عن اجواء اوربا الصناعية وانضباطها الذي يحبس الانفاس مما يجعل الانسان سجين نفسه تواقا للهرب منهـا الى البوادي او للفيافي الشاسعة ، حراً طليقاً كراعي غنم وسط سهول هـائلة المساحة لا حدود لها سوى الآفاق . وتكتب ايزابيل بيرتون – زوجة الرحالة





■ جارلس داوتي
■ ادوارد هنري بالمر

ريتشارد بيرتون ـ في مذكراتها « انني اتحرق شوقا الى الاختلاط بالغجر ، والبدو وكل شيء شرقي وغريب ، خاصة الى حياة طليقة خالية من النظام ، هذا النظام الصارم البارد في اول مجتمع صناعي في العالم ، وما ينطوي عليه من عمل مضن اثناء النهار باكمله في المكاتب والدوائر والمصارف والشركات ناهيك عن ظروف العمل الرهيبة في المعامل والمناجم والمتاجر . فعلاقات الرئيس بالمرؤوس تكون غالبا علاقة « عسكرية » بافضل وصف ، « واستعمارية » باسوء وصف لما فيها من تعال وغطرسة من طرف وطاعة عمياء من طرف آخر » ، وتعطي روايات ديكنز وترولوب فكرة عن جو انكلترا في القرن التاسع عشر ، وقد عززت العوامل هذه نوازع « الهرب » الى عوالم خيالية تجد فيها نفوس محرومة بلسماً شافياً في الاستغراق باحلام لذيذة عن قصور شرقية ، بقبابها المذهبة وافنيتها المرخمة التي تتوسطها نافورات ، وحرير وحريم ، وابخرة معطرة ، ودهاليز مظلمة تؤدي الى كنوز مكدسة تخطف الابصار ببريقها واقاصيص تستمر من شروق الشمس الى مغيبها الخ ..

ولكن النقطة المهمة هنا ان ما كتبه الرحالة عن الشرق الادنى ووصفهم لانماط الحياة فيه ، والصور التي رسموها اعطت الانطباع بان حياة الف ليلة وليلة ليست من بنات الخيال ولكنها كانت انعكاسا لواقع ما في الماضي ، هذا الواقع الذي لا يزال حياً في الشرق الذي لم تمسه ـ او بالاحرى ـ لم « تلونه » الحضارة الصناعية الغربية ، وقد عكست هذه الصورة في الادب الانكليزي كما تبين قصيدة الشاعر تنيسون « ذكريات من الف ليلة وليلة » التي ترجمها الكاتب :

عندما هب فجر سعيد
في شراع الطفولة الحريري
انحسرت مع جزر الزمن
ومدّه المتدفق الى الامام
وصبحيات الصيف الصبوح
وانا انساب فوق دجلة
مارا بأضرحة بغداد المذهبة
وحدائق مخضرة محاطة باسوار عالية
في أيام العز الذهبي
لهارون الرشيد الصالح .

(المقطع الاول)

وبعد ان تعتم نظري
من الزقاق الطويل المظلم
فخرجت ، واذ بي امام
مقصورة الخلافة العظيمة
وابوابها ، من خشب الارز المحفور
مفتوحة على مصراعيها الى الداخل

فوق ارضية مطعمة

وسلالم رخامية عريضة

. . . .

كما كان التقليد في ذلك العصر

ايام العز الذهبي

لهارون الرشيد الصالح

(المقطع الحادي عشر)

ستة اعمدة ، ثلاثة من كل جانب

من فضة خالصة

تسند عرشا هائلا من الذهب المصفى

تتدلى منه طيات سابحة

من الحرير المضلع والمشجر

بزهور محفورة ، قماش من ذهب

وهناك ، وعينه العميقة تحركت نحوي

بمرح وكبرياء ملكي

النجم الاوحد لذلك الزمان والمكان

رايته — بريعان عزه الذهبي

هارون الرشيد الصالح

(المقطع الاخير)

ولكن رومانسية « الهرب » تجلت باوضح صورها في سير بعض النساء الاوربيات في القرن التاسع عشر مثل ايزابيل بيرتون وهستر ستانهوب والسويسرية ايزابيل ابيرهارت وكثيرات غيرهن . فالسير هذه ، التي تناقلتها المجالس والمنتديات واعمدة « الاجتماعيات » في الصحف الخ ... كانت عاملا رئيسيا في تغذية رومانسية « الهرب » بحيث اصبحت الصبغة السائدة لحركة الرومانسية في تلك الحقبة (9).

لذلك فقد اخترت سير اثنتين من النساء الاوربيات في القرن التاسع عشر وارتأيت سردهما بشيء من التفصيل املا ان تتوضح للقاريء طبيعة رومانسية « الهرب » وكيف ان النزعة الرومانسية هذه اعطت الغرب فكرة معينة عن الشرق مما اثر على حركة الاستشراق الاكاديمي . والسير التي اخترتها هي سيرة الانكليزية « جين ديكبي » والفرنسية « ايمي دوبوك دي ريفيرى » (10) .

جين ديكبي : الانكليزية التي تزوجت اولا من لورد انكليزي ، ثم بارون نمساوي ثم من كونت الماني وآخر يوناني وقضت العقود الثلاثة الاخيرة من حياتها كزوجة وفية مطيعة لاحد شيوخ البدو في سوريا يدعى (عبدالمجول المزراب) (11) .

ولدت جين ديكبي عام 1807 في نورفوك بانكلترا من عائلة ارستقراطية وترعرعت في عزلة الريف ، وقضت اولى سني مراهقتها مع قصائد (بايرون) التي وجدت فيها سحرا شرقيا لا يقاوم . وقد ورثت عنصر المغامرة من اجدادها ، وكان جدها لامها ، الاميرال ديكبي قرصانا جريئا ينقض على السفن ، وابن عمها رحالة مغامر استطاع الوصول الى مكة على ظهر جمل وابحر احد اجدادها في القرن السابع عشر كينلم ديكبي الى الاسكندرونة وتجول في بادية الشام (12) . وقبل ان تبلغ السابعة عشرة من عمرها زوجها اهلها الى لورد النبره الذي يكبرها بخمس وعشرين سنة ، وكان الزواج فاشلا حيث انصرف الزوج الى ملذاته ، تاركا جين وحيدة في مجتمعات لندن . فتعرفت على الامير النمساوي فليكس فون ايشوارزنبورغ الذي عين حديثا سكرتيرا للسفارة النمساوية بلندن واصبحت عشيقة له وضجت المنتديات باخبارهما ، فنقل الامير النمساوي الى سفارة بلاده بباريس ، فتبعته واقامت معه هناك بعد طلاقها من زوجها (13)، فاسترعت انتباه مجالس باريس برشاقتها وخفة حركاتها ، وعواطفها الدفاقة ووصفها (بالزاك) بانها امراة ذات انفعالات « افريقية » وان رغباتها كرياح الخماسين التي تعصف بالصحارى (14) .

وفي عام 1831 افترقت عن الامير النمساوي وتوجهت نحو المانيا واقامت في ميونيخ حيث حظيت برعاية الملك لودفيج الثاني الذي احاطها بعنايته ورتب لها زواجا صوريا مع احد النبلاء وهو كونت فون فيننكن كواجهة لاستبقائها في بلاطه وهناك هام بها كونت يوناني يدعى سبريدون ثيوتوكي فتبعها اينما ذهبت ، واستطاع بعد الحاح شديد ان يقنعها بالزواج منه والذهاب الى اليونان — مرتع مغامرات بايرون — . فافترقت عن زوجها الالماني واعتنقت المذهب الارثوذكسي، وذهبت مع ثيوتوكي الى موطنه بجزيرة كورفو ، وعين ثيوتوكي مرافقا للملك (اوتو) عاهل اليونان فاصطحب زوجته الحسناء الى اثينا ، وكانت اثينا حينئذ تعج باقوام وطوائف مختلفة من سائر انحاء البلقان. واحدى هذه الجماعات تدعى الباليقار (15) وهم عشائر من جبال البانيا شديدة المراس يعمل اغلبهم كمرتزقة لمن يدفع الثمن . وكان الملك اوتو يخشى بأسهم فعين رئيسهم ويدعى حاجي بيتروس كمرافق له بدلا من ثيوتوكي زوج جين ديكبي . وحاجي بيتروس هذا كان عندئذ في الستين من عمره طويل القامة ذا سحنة جبلية عنيفة ، يرتدي اللباس الوطني الالباني الاحمر اللون الموشى بالذهب والفضة فبدا رمزاً رائعاً لرومانسية القرن التاسع عشر — شخصية « بايرونية » كاملة ، فهامت به بطلتنا وصحبته الى معاقله الجبلية (16) حيث اتفقا على ان تسافر الى سوريا لتشتري له فرسا عربية اصيلة وعند وصولها هناك كانت في السادسة والاربعين من عمرها . وعند اقامتها في دمشق قررت زيارة تدمر وبينما كانت تتفاوض مع جماعة من البدو لاستصحابها عبر الصحراء قابلت الشخص الذي اصبح فيما بعد زوجها الرابع والاخير ، عبدالمجول المزراب ، واحد من مشايخ عنزة كانت تسيطر على المناطق المحيطة بتدمر ، وكان عبدالمجول المزراب هذا يجيد عدة لغات وملما الماما واسعا بتاريخ البادية وتاريخ سوريا عبر العصور ويقوم بدور المرافق للشخصيات الاوربية التي تزور المنطقة وعلى هذا الاساس تم الاتصال به ليقوم بدور « الدليل السياحي » لجين ديكبي . وقد عرفه الكثير من الرحالة الاوربيين ، فكانت ايزابيل بيرتون تعرفه جيدا وقابلته حفيدة بيرون آن بلنت زوجة الرحالة ولفريد سكاوت بلنت الذي مر ذكره . واعد لها مجول قافلة كبيرة لتنقلها من دمشق الى تدمر ، وفي الطريق هاجمتهم عصابة من البدو ، فدافع مجول دفاعا غريبا عن المسافرة الاوربية ، فجمع

رجاله وطارد الغزاة ، فهامت رومانسية جين ديكبي التي وجدت في الشيخ البدوي الشهم مثالا للفروسية الشرقية .

وبعد اسفار عديدة قامت بها بمفردها الى بغداد واليونان عادت بعدها الى سوريا وتزوجت مجول واقامت معه في بيته بحمص وكانت تشاهد وهي تقوم باعمال البيت مرتدية الملابس البدوية وتسير حافية القدمين ، واجادت العربية اجادة تامة ، وذكر بيرتون انها تتكلمها بلكنة محلية . كما ذكر الامير عبدالقادر الجزائري المقيم بالشام حينئذ ان مجول « كان يتكلم العربية الفصحى بطلاقة »(17) وتحدثنا كاتبة سيرتها ليزلي بلانش عن حلقات سمر في سطح منزل ريتشارد بيرتون في حي الصالحية بدمشق والتي ضمت جين ديكبي ومجول وبيرتون وزوجته ايزابيل ، والامير عبدالقادر الجزائري حيث الحديث يدور عن البادية وعادات اهلها . وتصف ايزابيل بيرتون ديكبي بانها « اكثر بدوية من البدو » (18) وعرفت « بام اللبن » اشارة الى بشرتها الاوربية الناصعة البياض ـ وعاشت زوجة لمجول طوال ثلاثين عاما (19) .

وفي صيف عام 1881 اجتاح دمشق وباء الكوليرا ، فماتت جين ديكبي يوم 11 آب عن عمر يناهز الخامسة والسبعين ، وبينما كانت جنازتها تسير ببطء نحو مقبرة البروتستانت اصيب مجول بلوثة عقلية، وترك الجنازة مهرولا وعاد بعد فترة ممتطيا صهوة فرس جين ديكبي السوداء فتفرق الجميع وساد الهرج والمرج ... وسمع خلالها صوت اطلاقة مسدس (20) (بالنسبة للمراجع التي استندت اليها بلانش في كتابة سيرة جين ديكبي ـ انظر الهامش)(21) .

2 ـ ايمي دوبوك دى ريفيرى

لقد كتب القليل عن هذه الفتاة الفرنسية الا ان سيرتها التي تبدو لاول وهلة وكانها من نسج خيال روائي القرن التاسع عشر والتي ان دلت على شيء فانها تدل على ان لكل قرن طابعه المميز وان الدهر قد اسبغ على ذلك القرن عناصر الرومانس والمغامرة بسخاء غريب مثلما اسبغ على القرن العشرين التكنولوجيا التي انجبت الذرة والصواريخ والاقمار الصناعية. فالمهم في قصة ايمي دوبوك دى ريفيرى انها واحدة من السير التي طرحت الفكرة بان الف ليلة وليلة قد لا تكون مجرد قصص وحكايات خرافية ، بل من الممكن انها قد حدثت فعلا ، فسيرة ايمي دوبوك دى ريفيرى ، لا تقل عنها خيالا ولا غرابة. وبذلك تفتحت اعين القرن التاسع عشر على ان رومانسية الهرب ليست مجرد تحليقات في اجواء الاحلام « الافيونية » بل من المنطق الاخذ بعين الاعتبار احتمال كونها واقعية ، وعلى ان الحقيقة قد تكون اكثر خيالا من الخيال ، وبذلك ترسخت الانطباعات الرومانسية عن الشرق على انها واقع ثابت .

فمن هي ايمي دوبوك دى ريفيرى هذه ؟

تبدأ قصتها في النصف الثاني من القرن الثامن عشر ، ولدت ايمي دوبوك دى ريفيرى في جزر المارتينيك عام 1763 عن عائلة فرنسية ارستقراطية تملك مزارع شاسعة من قصب السكر ، مات ابوها سنة ولادتها وتبعته امها بعد 6 سنوات . ولكن اقارب ايمي الكثار من عمات واعمام واخوال وخالات احاطوها بحبهم وعنايتهم . ومنذ نعومة اظفارها توطدت علاقات حميمة بينها وبين ابنة عمها جوزفين التي شاء لها القدر ان تصبح احدى زوجات نابليون بونابرت (22) . وفي سن الثانية عشرة قامت ايمي وجوزفين بزيارة عرافة زنجية مشهورة تدعى يوفيميا ديفيد تقطن على بعد حوالي 20 كيلو مترا من مزرعة دوبوك ، فوجدوها جالسة القرفصاء على حصيرة وهي تتمتم بتعاويذ غير مفهومة فاعطتها جوزفين قطعة نقود ومدت يدها لها ، فتفرست العرافة العجوز بيد جوزفين وبدات تقرا لها طالعها : ستتزوج ، زواجها الاول فاشل .. ثورة .. ترملها .. طفلاها الاثنان .. زوجها الثاني .. سيملأ الدنيا بامجاده .. ستحني امم كثيرة رقابها له كفاتح عظيم .. ستصبح جوزفين سيدة عظيمة ولكنها ستموت تعسة .. ومنبوذة ..(23) وتنبؤات العرافة هذه مدونة في مذكرات العرافة الفرنسية المشهورة لينورماند (24) والمذكرات هذه نشرت بعد ست سنوات من موت جوزفين وبذلك تكون عرضة لاتهامات التلفيق. ولكن بلانش تؤكد ان الكثيرين سمعوا بالنبوءة هذه من جوزفين ، خاصة تاليران الدبلوماسي الفرنسي المخضرم ، وهورتينس ابنة جوزفين ، ملكة هولندا .

ثم جاء دور ايمي فدرست العرافة يدها وقالت :

سترسلين الى اوربا لاكمال تعليمك .. سيستولي القراصنة على سفينتك .. ستؤخذين اسيرة الى السراي .. وستنجبين ولدا .. وولدك سيحكم .. ولكن عرشه سيكون ملطخا بدماء سابقة.. ولن تذوقي ابهة وفخفخة البلاط .. ولكنك ستقيمين بقصر رائع .. وفي الساعة التي ستدركين فيها ان سعادتك قد اكتملت .. ستذوب هذه السعادة مثل حلم جميل .. وسيحملك داء بطيء الى قبرك(25). وفي عام 1778 قرر مجلس عائلة دوبوك ارسال ايمي الى فرنسا لاكمال تعليمها .. وقضت ايمي 8 سنوات في دير نانتس في فرنسا .

وبعد انتهاء الحرب بين فرنسا وانكلترا حول المستعمرات الامريكية وعندما كانت ايمي في الحادية والعشرين من عمرها ابحرت من فرنسا عائدة الى مارتينيك ، مصطحبة معها صلوات راهبات وتلميذات الدير. وبعد ابحارها بعدة ايام هبت عاصفة هوجاء في خليج بسكاي وتدفقت مياه البحر الى داخل السفينة ، وكانت على وشك الغرق فتركها المسافرون بعد ان اقتربت منهم سفينة تجارية اسبانية ، فانتقلوا اليها . وقبل وصول السفينة الاسبانية هذه الى جزيرة مايوركا ، هاجمها قراصنة ، وسحبوها بمن فيها ، الى ميناء الجزائر وقد نحيت ايمي جانبا ، بمعزل عن بقية المسافرين ، فقد قرر كبير القراصنة تقديمها كهدية الى حاكم الجزائر ، الوالي بابا محمد بن عثمان (26) ، الذي قدمها بدوره الى الباب العالي في القسطنطينية دليلا على مبايعته وولائه له . فارسلت ايمي في سفينة خاصة الى القسطنطينية ،وسيقت ملفوفة بالحرائر الموشاة بالذهب الى قصر السلطان عبدالحميد الاول ، فارتجفت الفتاة هلعا عندما رأت زنجيا ضخم البنية ـ القزلار اغا ـ ذا عمامة مزينة بالريش يتقدم نحوها ليفحص الهدية المقدمة الى سيده السلطان ، وبجوار الباب الذي خرج منه القزلار اغا ، حدقت ايمي في هرم صغير من الرؤوس البشرية التي قطعت لتوها محاطة ببركة من الدم تحوم حولها اسراب الذباب .. فاغمي عليها .

وعندما استيقظت من غيبوبتها وجدت نفسها في « الحريم »(27) حيث عرفت هناك بـ « نقش ديل » وعندما استدعى القزلار اغا ايمي وهنأها على وصولها الى الحظوة السلطانية وان الباب العالي وافق على استقبالها في مخدعه ، عارضت ايمي ذلك واخذت ترفس وتصرخ ، اول مشهد من نوعه في تاريخ حريم سلاطين آل عثمان ، وقد اعتبرت مجنونة ، ولكنها استسلمت لقدرها المحتوم ، وتذكرت نبوءة العرافة

يوفيميا ديفيد واقتيدت الى مخدع السلطان .

وفي السنة الثانية، في يوم 20 تموز 1785 ولد ابنها محمود(28). واستقرت ايمي في الحريم ، وكيفت نفسها حسب محيطها الا انها لم تنس مطلقا اصلها وتمسكت بمذهبها الكاثوليكي وبكل ما هو فرنسي، فكانت تتكلم مع ابنها بالفرنسية وتصف له بلادها وجمالها وحضارتها. الخ .. وكان ولي العهد ــ سليم ــ وهو شاب في مثل عمرها يحب الانفتاح على العالم الخارجي ومعجب بالعلم والثقافة الفرنسية ، يسأل ايمي باستمرار عن مختلف اوجه الحياة فيها . وقد ظهر نفوذ ايمي في الرسالة التي بعث بها سليم الى لويس السادس عشر في تشرين الاول عام 1786 يبدي فيها اعجابه بفرنسا ويعرض فيها توثيق العلاقات بين البلدين .

وحار دبلوماسيو فرنسا في تفسير هذه الرسالة الغريبة القادمة حتما اما من ساذج او عبقري ، وثارت حولها الشكوك ولم يدر بخلد احد ان وراء الرسالة تلميذة دير ، فقد انقطعت اخبار ايمي واعتبرت ميتة وحتى جوزفين التي لا بد وان تذكرت النبوءة لم تتصور ان ابنة عمها اصبحت الزوجة المفضلة للسلطان العثماني وعنصرا فعالا في علاقات الامبراطورية العثمانية بالعالم الخارجي . وباعتلاء سليم العرش بعد موت عبدالحميد سعى الى توطيد اوثق العلاقات مع فرنسا . فاستقدم ضباطا فرنسيين لتنظيم جيشه وللاشراف على معمل صب المدافع في (طوب خانه) ، وعمالا ماهرين في احواض بناء السفن . واغتبطت ايمي عند سماعها بان الجنرال بونابرت قد تزوج الفايكنتيوبوهارنيه ــ ابنة عمها جوزفين ــ ولكنها لم تستطع الاتصال بها ، فهي الفرنسية الارستقراطية العريقة كانت تخجل من المصير التي آلت اليه « جارية في حريم شرقي ــ مصير اسوأ من الموت » كما قد تعيرها صالونات باريس .

ولعبت ايمي دورا فعالا في المناورات السياسية الرباعية المتكونة اطرافها من الدولة العثمانية وروسيا وفرنسا وبريطانيا . فقد سعى السلطان سليم ، تسانده ايمي خفية ، الى عقد تحالف مع فرنسا تحتمي به من اطماع روسيا وبريطانيا . وكان مصطفى ، منافسه على العرش ، بتأييد من الانكشار ، يحاول التقرب الى روسيا . واخذت بريطانيا تهدد سليم بوجوب السير في ركابها .

وعلم نابليون بالوضع فارسل مساعده الجنرال سباستياني الى القسطنطينية لتنظيم دفاعها ضد غزو محتمل . وفور وصوله عقد اجتماعات متوالية مع السلطان . فاستشاط السفير البريطاني غضبا ولم تمض فترة حتى دخل الاسطول البريطاني مضايق الدردنيل مطالبا بسحب سباستياني فورا . وتراخى السلطان ، ولكن ايمي حثته على الصمود (29) .

وجرّ الاتراك مدافعهم الى مواقعها حسب توجيهات سباستياني. ومن حسن حظ السلطان ومستشارته الفرنسية ان الجو خذل الاسطول البريطاني ، فتحولت الرياح ضده وكاد الاميرال داكوورث يفقد السيطرة على سفنه فانسحب راجعا الى بلاده . وربح السلطان سليم ، وسباستياني ــ وايمي ــ الجولة الاولى .

ولكن دولاب القدر دار ضدهم . فماتت زوجة سباستياني فجأة ومنعه حزنه عليها من ان يبقى في اسطنبول فغادرها عائدا الى باريس، وبقي السلطان سليم وحيدا ،دون سنده الاوربي القوي فاغتنم الانكشار الفرصة وتواطأوا مع مصطفى فثاروا على السلطان وداهموا السراي

واستطاع سليم ان ينذر محمود قبل ان تمزقه مائة من طعنات الانكشارية فهرب محمود من فوق سطح السراي ، ويقال ان ايمي خبأته في احد صهاريج الماء في الحمامات ، فكان اكثر ولاة السلطان سليم اخلاصا له هو بيرقدار « روستشوك » البلغاري . فعندما سمع بما حدث جمع جماعة من الارناؤوط وسار بهم نحو السراي لينجد السلطان (30) .

وفي ذلك المساء دوت المدافع معلنة محمود سلطانا . ومن الطريف ان راهبات دير نانت الذي درست فيه والدته كتبن يطلبن مساعدته في فرش الدير بالسجاد ، حيث نهب سجاده اثناء الثورة الفرنسية ، فارسل لهم محمود زوجا من السجاد العجمي الفاخر .

وفي السراي اصبحت ايمي الآن « السلطانة الوالدة » تحكم في الحريم حكما مطلقا ، لها قصرها الخاص ومواردها وحاشيتها ، يستشيرها السلطان في كافة الامور بصورة دورية وتشرف على مستشفى ومكتبة الحريم . وصُدمت ايمي عندما علمت بان نابليون قد طلق ابنة عمها في 16 كانون الاول 1809 ليتزوج ماري لويز . وقد وصفت ايمي لمحمود بهاء جوزفين وشخصيتها الفذة وذكاءها الوقاد ونبل خصالها فاغتاظ محمود لدى سماعه الخبر واعتبر الطلاق اهانة موجهة لوالدته . وتذكر بعض تواريخ الدولة العثمانية ان لهذه الحادثة علاقة وثيقة بتدهور العلاقات بين الباب العالي وفرنسا .

وزادت العلاقة بين اسطنبول وباريس سوءا وكان ان ادت الى تحسن العلاقات العثمانية ــ البريطانية . فمنح السفير البريطاني في القسطنطينية روبرت ادير مقابلات فورية مع السلطان مما حمل السفير الفرنسي الى الكتابة الى نابليون بمرارة : « لقد اصبح الباب العالي اكثر انكليزية من الانكليز انفسهم » وسدد محمود ضربة مميتة الى نابليون بتوقيعه معاهدة بخارست في 28 مايس 1812 مما سمح لروسيا ان تسحب جيوشها من حوض الدانوب وتكرسها لمقاتلة الفرنسيين .

واقتربت نهاية ايمي بحلول عام 1817 . ففي احدى ليالي الشتاء عبر قارب فخم القرن الذهبي الى دير القديس انطوان في بيرا . واصطحب راكبو القارب رئيس الدير ، الاب كريوستوم وعبروا به الى الجانب الآخر ، واقتيد في الظلام عبر الحدائق الى غرفة فخمة الرياش تتدلى من سقفها ثريا رائعة . وفي وسط الغرفة سرير ترقد عليه امرأة تحتضر وبجانبها طبيب يوناني . وعلى بعد بضع خطوات من السرير وقف رجل في حوالي الاربعين من عمره ، يبدو عليه علو مكانته ، تشع من سحنته الحزينة علائم الوقار والهيبة وقد عصره حزن شديد ، فكان يبكي بمرارة ولكن بصمت . وعندما دخل رئيس الدير امر الرجل البقية بمغادرة الغرفة واقترب من السرير وانحنى على المرأة المحتضرة قائلا : « يا والدتي .. لقد رغبت بمغادرة الدنيا على دين اجدادك وها هي رغبتك تلبى » . واومأ للقسيس ان يتقدم نحو السرير وانسحب بضع خطوات جانبا واستمع لاعترافات المرأة وصلواتها وتوبتها ..

وترقد ايمي الآن في « التربة السلطانية » بالقرب من آياصوفيا في اسطنبول ، وكتب على قبرها ما ترجمته :

منها ، محمود ، سلطان العالم ، قد ظهر

منها ، السلطان الجليل ، قد بان





الذي فتح بوابة الشرق لنور جديد (31)

هذه قصة ايمي دوبوك دي ريفيري حسب المصادر الغربية .

ويبحث المؤرخ التركي احمد رفيق سيرة ايمي . ففي مقال نشر في مجلة لجنة التاريخ التركي (32) تحت عنوان « والدة محمود الثاني » يقول :

« ان الاتراك ما كانوا يبالون بكون اميراتهم ينتمين الى البيزنطيين او الصربيين او الروس او اليهود او البنادقة او البولونيين، فلا اهمية لذلك عندهم . فالبلاط التركي كان يهضمهن ويغير حالتهن بسرعة متناهية ، ويصبحن كلهن خاضعات للعادات والتقاليد التركية ، ينشئن المساجد والمدارس والعمارات ويفاخرن ببذل الصدقات على الفقراء . والاتراك ما كانوا ينظرون اليهن على انهن اجنبيات ابدا وكانوا يطلقون عليهن العديد من الالقاب « كالوالدة المعظمة » او « تاج المستورات » او « مهد السمو » .

ويبحث احمد رفيق في اصل ايمي دوبوك دي ريفيرى ، وينتهي الى ان اصلها يتطابق تطابقا تاما مع ما ورد عنها في المصادر الغربية : سنة 1766 ولدت في جزيرة مارتنيك صبية لاسرة دوبوك وبنفس التاريخ ولدت للاسرة ذاتها زوجة نابليون المقبلة جوزفين ، والوالدتان اختان ، وقد ترعرعتا معا . جاءت جوزفين الى فرنسا واقترنت برجل من اسرة بوهارنيه ، وجاءت ايمي ايضا الى فرنسا ودخلت احد الاديرة وبعد اكمالها الدراسة عام 1784 غادرت فرنسا مع مربيتها ، وكادت السفينة التي اقلتهما تشرف على الغرق فانقذتهما سفينة اخرى لتنقلهما الى مايوركا ، وفي الطريق استولى القراصنة الجزائريون على السفينة واسروا الآنسة دوبوك ، فنقلت الى الجزائر ومنها الى استانبول ، وتوفيت عام 1817 .

وقام زوج خالة – او زوج اخت الآنسة دوبوك – المسيو مارلي – بمراجعة السفارة الفرنسية باسطنبول باحثا عن الآنسة .ولم تعط السفارة اذنا لمراجعاته . ولكن بذلك قد تكون اعتقاد بان والدة محمود الثاني فرنسية ، وكما قال الدكتور كابانا : على كل حال انتشرت هذه الاسطورة ولا يمكن ازالتها من الاذهان .

ثم يستعرض احمد رفيق انتشار سيرة ايمي فيقول :

« اول من كتب عن كون والدة محمود الثاني فرنسية هي الصحف الانكليزية ، كما نشر المؤلف دوجوني عام 1821 رواية مطولة عنها . وفي 11 شباط 1854 بحثت مجلة ايلوستراسيون الموضوع ثانية . وكتبت جريدة « لاتوركي » الصادرة في اسطنبول آنذاك تقول « في الواقع اذا كانت الآنسة دوبوك هي والدة محمود الثاني فتصبح عندئذ جدة نابليون الثالث وجدة السلطان عبدالعزيز بنتي خالة لبعضهما البعض » ومضت الصحيفة قائلة : « وعلى هذا الاساس فان الدولة العثمانية تكون مدينة للخطوة الاولى التي خطتها نحو الترقي لامراة فرنسية » .

ويقول احمد رفيق في نهاية بحثه :–

« في الاساس ، ليس في المقالات والوثائق التي نشرت حول كون الاميرة الوالدة « نقش ديل » هي عينها الآنسة دوبوك اية معلومات يمكن الاطمئنان اليها ، غير ان هناك مصادفات في التواريخ . فقد افتقدت الآنسة دوبوك سنة 1784 ، وبعد سنة – اي عام 1785 –

ولد محمود الثاني . وحتى قضية التاريخ هذه لا تخلو مما يثير الشك حولها . فالآنسة دوبوك خلال سنة واحدة ، جاءت الى اسطنبول ، ودخلت البلاط ، واستطاعت ان تكون والدة السلطان المقبل ».

ويستند احمد رفيق برايه هذا الى عدم وجود اية وثيقة تاريخية تثبت كون الصبية الفرنسية اماً لسلطان عثماني « ليست هناك اية وثيقة اجنبية حول دخول الآنسة دوبوك الى البلاط في تلك السنة . ولا يوجد اي قيد في خزينة الاوراق يثبت ذلك . ولم يثبت وثائقيا قيام محمود الثاني بايفاد سفير الى مارتنيك للتحقيق عن اقربائه . فبناء على هذا ، فان قضية كون نقش ديل ـ الاميرة الوالدة ـ فرنسية ، بالنظر الى الوثائق العارية من اي قيمة تاريخية ، ما هي الا رواية فحسب » .

قد يكون هذا ، او لا يكون . خاصة اذا اخذنا بنظر الاعتبار التنافس الشديد بين نساء الحريم لدفع ابنائهن نحو العرش . فالوثائق التاريخية يمكن اتلافها بسهولة في محيط كالبلاط الهمايوني في القرون الماضية كما تصفه كاتبة سيرة ايمي ، لسلي بلانش :ـ

« ان تاريخ الامبراطورية العثمانية ما هو الا اثبات قاطع ومطول لسلطة الحريم الهائلة . فهذه الدولة الشرقية التي يسود الاعتقاد خارجها بان المراة فيها ما هي الا العوبة خانعة بيد الرجل يستمتع بها ثم ينبذها بمنتهى البساطة ، هذه الدولة كانت تحكم في الواقع ، بطريقة غير مباشرة ، ولقرون طويلة من قبل حريم السلطان :ـ

فالمؤامرات كانت تحاك في دهاليز السراي . ومحظيات الحريم كن يتسمن بالخبث والدهاء والقسوة والطموح يسعين لدفع اولادهن نحو العرش وقتل اولاد غيرهن لمنعهم عنه . وبعضهن استطعن ان يسيطرن سيطرة تامة على السلطان ، كالروسية روكسالينا التي استطاعت ان تقنع السلطان سليمان بقتل ابنه الاكبر لتفسح المجال لابنها لاعتلاء العرش (33) وكان مصيرهن رهناً باشارة من السلطان. فالسلطان ابراهيم اباد حريمه المتكون من 300 امراة . وقد شاهد غوّاص جثثهن في قاع البسفور وهي ملفوفة بالاكياس المثقلة بالحجارة » (34) .

فهل من المستبعد اذن ، وفي محيط كهذا ، ان تختفي قصاصة ورق معينة او ان يشطب قيد ما في سجل ؟

وعلى كل حال فالمهم هنا ، كما يعترف احمد رفيق ، ان سيرة ايمي دوبوك دى ريفيرى قد استحوذت على المخيلة الاوربية واكتسبت نوعاً من الواقعية المترسخة في الاذهان رسوخ الاساطير المتداولة من جيل لآخر عبر القرون وقد شغلت سيرتها الاذهان وكتب عنها في العشرينات والخمسينات من هذا القرن منها كتاب :

Morton: "The Veiled Empress"

بالاضافة الى كتاب لسلي بلانش المذكور آنفاً .

تاثير السير الرومانسية على حركة الاستشراق

ان الغرض من سرد سير النساء مثل جين ديكبي وايمي دوبوك دى ريفيرى بهذا التفصيل هو بيان مدى فعالية عنصر « رومانسية الهرب » وتغلبه على روحية القرن التاسع عشر ـ وكونه جزءا لا يتجزأ من طابع ذلك العصر الذي انجب هذه الانماط وشغل نفسه بتتبع اخبارهن بشغف وتلهف . وقد ساعدت سيرتا جين ديكبي وايمي دوبوك دى ريفيري ـ كما ساعدت سير نساء اخريات لا يتسع المجال لذكرهن ، على اضفاء شيء من التوافق اللاشعوري في الذهنية الغربية بين « النساء » و « الشرق » . وامتد هذا التجاوب « النسائي ـ الشرقي » الى العشرينات والثلاثينات والاربعينات من القرن الحالي ، متجليا باوضح معالمه في السينما والمسرح كفيلم رودولف فالنتينو « شيخ العرب » والمسرحية الغنائية « قسمت »الخ ... ومما عزز هذه الفكرة في الذهنية الاوربية العامة ـ والانكليزية خاصة ـ عدا السير الوارد ذكرها آنفا وصف شهود عيان لجو شرقي بحت يكاد لا يختلف في شيء عما ورد في حكايات الف ليلة وليلة . فكتبت ليدي ميري وورتلي مونتيكو زوجة احد السفراء البريطانيين في اسطنبول بالقرن التاسع عشر في مذكراتها تصف زيارة قامت بها لزوجة الكيخيا : « ذهبت لزيارة زوجة الكيخيا فاستقبلني في الباب زوج من المخصيين السود وقاداني الى الداخل عبر رواق عريض بين صفين من الفتيات الجميلات ، بشعرهن المتدلي الى اقدامهن تقريبا ، يرتدين ملابس من الدمقس الخفيف الموشى بالفضة ... وخلب لبي عندما دخلت الى صالة كبيرة ذات نوافذ مذهبة وكانت الاشجار المزروعة فيها تعطي ظلا بديعا ، يفوح عطر عبق من الياسمين الملتف حول جذوعها . وفي اسفل الصالة ، نافورة وسط حوض رخامي ناصع تعزف موسيقى مائية عذبة . ووجدت زوجة الكيخيا متكاة على اريكة مغطاة بالسجاد العجمي الفاخر ، وهي متوسدة بوسائد من الحرير الابيض الموشى . وقد جلست بعض الفتيات الصغيرات ، يبلغن من العمر 12 عاما ، جميلات كالملائكة ، يتحلين بحلي تخطف الابصار » (35) .

ونرى عندئذ ، ومن كل ما ورد آنفا ان المستشرق الاكاديمي المعتكف في مكتبة جامعية سيئة الاضاءة والتدفئة يقوم بترجمة «الكامل لابن الاثير » او « يتيمة الدهر » للثعالبي او « تاريخ » يحيى بن سعيد الانطاكي انما يدخل في معركة خاسرة تجاه هذه الالوان الصارخة التي لا يمكن ان تفشل في شد العيون اليها . فالتراث العربي المترجم الى الانكليزية لم يستطع مزاحمة صور الفخفخة والابهة والبذخ الحقيقية التي شاعت الظروف التاريخية في تلك الحقبة الزمنية ان تهيء الذهنية الاوربية لتلقفها والاستمتاع بها ، مكونة بذلك فكرة راسخة لا تتزعزع عن الشرق تكون ازاءها جهود الاستشراق الاكاديمية عديمة الجدوى وعندما يسأل الاوربي عما يعرفه عن تراث الشرق الادنى ، فاول ما يتبادر الى ذهنه هو « الف ليلة وليلة » ومضارب البدو ، وفخفخة السراي الهمايوني .

فلذلك نرى ان حركة الاستشراق وجدت في رومانسية «الهرب» في القرن التاسع عشر نداً تصعب مقاومته . فالنقطة المهمة في هذا الصدد ان قراء القرن التاسع عشر في الغرب تلقفوا من التراث العربي ما يناسب المزاج السائد في ذلك العصر . الشرقي يعرف شكسبير والغربي الى الآن لم يسمع بالمتنبي . ولعل « عمر الخيام » يعطي مثلا واضحا على العلاقة بين الاستشراق والرومانسية في القرن التاسع عشر . فبالرغم من ان الرباعيات ترجمت « لاول مرة من قبل توماس هايد عام 1670 » الا انها بقيت مغمورة الى اواسط القرن التاسع عشر عندما قام فيتزجيرالد بترجمتها . فقد اشتهرت تراجم الخيام في القرن التاسع عشر بسبب ملاءمة الجو الاجتماعي والفكري الناتج عن توسع النفوذ السياسي والاقتصادي البريطاني في تلك الحقبة . وقد شرح كاتب هذا المقال في الورقة التي تلاها عن عمر الخيام في الجمعية الفلسفية في جامعة دبلن بتاريخ 23 شباط 1964 ملاءمة جو

القرن التاسع عشر لتقبل رباعيات الخيام :ـ

« ان الظروف التي احاطت بنمو شهرته (الخيـام) في الغرب تعزى لعوامل شتى: فالمجتمعات الارستقراطيةالبراقة وطبقةالصناعيين الاثرياء التي ظهرت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وجدت في رباعيات الخيام كما ترجمها فيتزجيرالد بشاعريتها الانسيابية الناعمة المثيرة للنشوة ، وجدوا فيهـا انواع « الخمريات » المتوفرة ، تعبّر بدقة متناهية عن استرخائهم في بحبوحـة عيش رغيد وفرتها لهم امبراطورية مترامية الاطراف ، وكان المعنى الحرفي الظاهريللرباعيات وما يعج به من خمر واستسلاممسترخ للذات الحياة ما خلبلبهم.ولم تحظ بواطن الرباعيات وما تزخر به من معان فلسفية عميقة باهتمام اولئك السادة . فكـانت الرباعيات تردد في صالونات وثيرة الرياش تعبق بالاريج الصندلي لسيكاير الهافانا وعطـر البرانـدي الفرنسـي الفاخر ... مجرد تحفة شرقية اخرى في جعبة المغانم الامبراطورية ».

فالعصر كان عصر استمتاع من قبل الطبقـات الموسرة بافخر ما يستطيع الشرق ان يقدمـه من « كماليات » وسلع و « خدمات استهلاكية » سواء كانت منتجعات سياحية كالبوادي الحافلة بنماذج بشرية زاهية الالوان بخيامها وملابسها المسرحيـة « الفضفاضة » او قصوراً وسرايات ما هي الا متاحف حية تضم كافـة اوجه الابهـة والفخفخة الشرقية كما كانت في القرون الغـابرة ، فليس من قبيل الصدفة اذن ان عملين من اعمال الادب الشرقي اجتاحا الغرب همـا « رباعيات الخيام » و « الف ليلة وليلة » . فالرباعيـات اعتبرت زخرفة ادبية شرقية رائعة ملائمة تمـاما للتعبير عن نشوة الطبقات الارستقراطية والموسرة . اما بخصوص الف ليلة وليلة فقـد ناقش كاتب هذا المقال في بحث مقدم الى مجلة آداب المستنصرية عن قصيدة الشاعر تنيسون الواردة ترجمة لها في بداية هذا العرض ناقش العامل الدفين وراء الاقبال المتناهي على الف ليلة وليلة في الغرب وعامل آخر يمكن اضافته في هذا الصدد عن دوافع الاقبال هو العامل الديني : فقد ساد المناخ الديني في انكلترا في القرن التاسع عشر رد فعل ضد ما يسمى بالكنيسة العالية اي تركيز سلطة الكنيسة بيـد اساقفة اتوقراطيين بعيدين عن الرعية . وقـد نشأ كرد فعل على النزعة الاوتوقراطية هذه اتجاه ينـادي بالتركيز على « علم الخلاص » اي المبدأ الديني الاعلى الذي يجب على الانسان ان يسمو اليـه وان على الانسان ان يسعى الى الخلاص الى الملكوت الاعلى من شوائب الدنيا ، فالانسان في هذه الدنيا تتقاذفه تيارات لا سيطرة له عليها ، فعليه ان يسعى نحو « الخلاص » باجلى واطهر معانيه . والنزعة نحو الخلاص هذه ، كانت المحرك الاول في انتشار البعثات التبشيرية الاوربية في افريقيا والصين وانحاء اخرى من العالم لدعوة « الضالين » من بني البشر الى اعتناق مسيحية معينة تدين اول ما تدين بمبدأ الخلاص، اي الى حث الانسان على تحفيز كل جوارحه نحو السمو الى ملكوت الرب لتخليص روحه من الشوائب . وقد تمخضت الحركة التبشيرية هذه بعدئذ عن منظمة دينية تدعى « جيش الخلاص » لا تزال تمارس نشاطاتها الدينية في معظم انحاء انكلترا وامريكا حتى اليوم . وهنـاك علاقة بين نزعة الخلاص الدينية هذه في القرن التاسع عشـر وبين رواج وشعبية الف ليلة وليلة . « فمن بواطن نزعة الخلاص التبشيرية فكرة تدعى Sea - Tossed Raft Syndrome اي فكرة الطوافـة التي يتقاذفها البحر » . فالانسان في هذه الدنيا اشبه ما يكون بطوافة او « كلك » لا تتوفر فيه الوسائل الملاحية الناجعة التي تضمن وصوله الى ميناء اهدافه . فقد يرفع شراعا على طوافة حياتـه او ان يثبت « دفة » في مؤخرتها او ان يحاول « التجذيف » ولكن هـذه الجهود ما هي الا محاولات مهلهلة ركيكة امام تيارات البحر الجامحة ورياحه وعواصفه العاتية . فالبحر ، رمز القدر هو الـذي يتحكم بمصير الانسان ، اما ان يغرقه او ان يوصله الى شاطىء ما . ووجد القراء في الغرب تجاوبا بين الحكايات الشرقية وبين فكرة « الطوافـة التي يتقاذفها البحر » . فاحبوا السندباد البحري لان القدر فضّله على غيره وانعم عليه بنعمة « الخلاص » منقذا اياه من موت محقق مرات متتالية . ونجحت الف ليلة وليلة في الغرب لانها وفرّت عنصرالتسلية البريئة مما يجعل اجزاء كثيرة منها تصلح كقصص اطفال لما تنطويعليه من عِبَر : فالكنوز جائزة الخيرين مهما كان تواضعهم كما في قصة علي بابا ،وكيف ان الحاكم يجبدائما ان يكون صالحا محبا للخير والعدالة، يتّسم بالحلم والمرونة ، كهارون الرشيد ، قصص تساعد في تربيـة اطفال من المتوقع ان يحكموا غدا مساحات شاسعة واقواماً عـديدة في مشارق الارض ومغاربها .

ومن المتعارف عليه ان رومانسية القرن التاسع عشر قـد نبعت من المانيا التي اعطتها اوبرات واكثر طابعا مميزا وانتشرت بعدئذ الى سائر انحاء اوربا الا ان الرومانسية في انكلترا ولو انها تأثرت نوعا ما بالرومانسية الالمانية ، كما تشير بذلك رسائل وردزورث وكولريج الا انها انحدرت من ما يعرف بالرواية الغوطيةفي القرن الثامن عشر واشهر داعية من دعاة هذا النوع من الاسلوب الروائي هو (هوراس وولبول) ففي روايته قلعة اوترانتو يصور لنا وولبول جوا غامضا شاحبا يسود قصرا هائلا يدعى قلعة اوترانتو التي توارثتها اسرة ارستقراطية منـذ اوائل القرون الوسطى وهي اسرة ذات سيرة دموية تخللتها مؤامرات واغتيالات وتعذيب في سراديب وزنزانات رهيبة وممرات سرية تؤدي خارجا الى وديان صخرية سحيقة . فالرواية الغوطية كـانت تحتوي كل مقومات الاثارة والغموض والدهشة التي ورثتها منهـا رومانسية الشرق وحولت خلفيتها من قصور اوربا العتيقة وعوائلها الارستقراطية الشاحبة الوجوه الغريبة الاطوار الى جو اكثر اثارة وغموضاً ، مثيراً دهشة وعجباً عميقين . فتحولت خلفية الرواية الغوطية من اوربا الى بلدان الشرق الادنى . فنرى خليفـة وولبول الروائية كلارا ريف (1807 ـ 1729) تختار خلفية شرقية لروايتها جاروبا ـ ملكة مصر ورواية وليم بكفورد (1844 ـ 1759) الشرقيـة « الواثق » التي نشرت عام 1786 ذات الجو الشرقي البحت . وتكوّن رواية بكفورد هذه حلقة الوصل بين الرواية الغوطية التقليدية ورومانسية الشرق. فقلعة « الواثق » التي اطلق عليها بكفورد اسما انكليزيا ـ فونتهيل ـ لها اروقة سرية ودهاليز مظلمة تكاد تكون نسخة طبق الاصل لدهاليز واروقة اوترانتو التي سلكها الواثق الى « قاعة ابليس » الرهيبة .

فالاستشراق اذن زود التيار الادبي في انكلترا «بخلفيات» شرقية تتلاءم مع المزاج الادبي السائد في ذلك العصر الذي كان يحبذ الاسلوب الروائي الذي تشوبه « الرهبة الغامضة المتعة » ولكن هناك حـدا للابداع والتجديد في وصف قصور اوربا الارستقراطية العتيقة ومـا تحتويه من دهاليز وممرات سرية وهذا يفسر اختيار كلارا ريف ووليم بكفورد لخلفيات ومواضع شرقية عوضا عن الاوربية . فالشرقيستطيع ان يقدم من ضروب العجب والاثارة والرهبة المتعة اكثر بكثير ممـا تستطيع ان تقدمه قلاع اوربا التي تفشل دهاليزها المظلمة في جـذب القراء اليها ان وصفت بتكرار .

فرومانسية الشرق ظهرت في ادب القرن الثامن عشر في انكلترا

وكانت تعرف بالشرقيات الا ان مكانتها الادبيـــة بقيت هامشية وان اهميتها تكمن ـ ليس في قيمتها الادبية ـ بل في كونهـا تمثـــل اسلوبا روائيا راج في فترة تاريخية معينة .

ونرى ايضا ان اعمال الاستشراق ككل لم تفز برواج وشعبية لدى القراء في الغرب ، سوى عملين فقط هما « رباعيات الخيام » و « الف ليلة وليلة » فالمهم في هذا الصدد هو وجود توافق شبه تام بين رواج « رباعيات الخيام » و « الف ليلة وليلة » وبين رومانسية الشرق كما وردت في سير جين ديكبي وايمي دوبوك دي ريفيري . فلأول مـرة منذ بدء الاستشراق في القرن السابع عشر استطاعت القلة من الاعمال الشرقية ان تتمتع بسوق رائج . واستطاع الاستشراق ان يغـــذي الرومانسية ـ التي سبق وان اكتشفت الشـــرق الادنى بطريقتهـا الخاصة ـ استطاع ان يغذيها بمزيد من « الشرقية » والتـي بدورهـا زادت من تعلق الغربيين بالشرق .

الهوامش :

1. Benard Lewis : " BritishContributions to Arabic Studies ", London, 1941.

2-7. ibid.

8. Lesley Blanch " The Wilder Shores of Love " London, 1959.

9-10. ibid.

11-20. Mrs Arbuthnot " Journals ", London,. 1950. Henry Channon "The Ludwigs of Bavaria", London 1933.

21. C.P. Grant " The Syrian Desert ", London 1937. Mary Macintosh "Damascus and its People", London 1883. E.M. Oddie "The Odyssey of a Loving Woman, New York 1936.

22. OP. Cit P 211.

23. ibid. P 213.

24. Lenormand : Memoirs Historiques.

25. OP Cit P 214.

26-31. ibid. P 217-282.

32. مجلة لجنة التاريخ التركي ـ السنة الخامسة عشرة رقم 10 (87) 1 تموز 1341 هـ ـ ترجمة السيد عزيز سامي .

33. Blanch P 225.

34. ibid. P 229.

35. introduction to Edward Forsters Translation of The Arabian Nights, London 1850.

ملحق باسماء ومهن وتواريخ زيارة بعض الرعايا

البريطانيين لبغداد من القرن السادس عشر

حتى اواخر القرن التاسع عشر

الاسم	سنةالزيارة	المهنة
جون نيوبورى	1581	تاجر
وليام باريت	1581	تاجر
جون إلدرد	1583	المهنة غير معروفة بالضبط
سر انطوني شيرلي	1599	عسكري
جون كاترايت	1603	المهنة غير معروفة بالضبط
كلوديوس ريچ		المقيم الرسمي البريطاني
باكنكهام	1816	رحالة
جورج كيپل	1824	ضابط بالجيش الهندي
جنرال چسني	1830–31	مساح عسكري
كوماندر فيلكس جونس		ضابط بحري ، مساح
كابتن لنچ		تاجر وصاحب شركة المكائن والبواخر النهرية
بالى فريزر	1841	رحالة
دبليو . بي . اندرو	1857	مهندس سكك حديد
تريسترام ايليس	1878	رحالة وفنان